ندوة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري حول اللسانيات : مائة عام من الممارسة
المنعقدة بمناسبة الذكرى المائوية الأولى لوفاة فرديناند دي سوسير (1913-2013)

يوم 2013/12/11

الدكتورة: نعيمة سعدية –جامعة بسكرة

سوسير ولسانيات الكلام..

هل كان يدرك...؟؟:

الملخص:

قارئ كتاب العالم اللساني فردينا ند دي سوسير " محاضرات في اللسانيات العامة سيدرك أن هذا الباحث من الأوائل الذين نادوا بلسانيات الكلام، التي اصطلح عليها فيما بعد لسانيات الخطاب ولسانيات النص وغيرها من الفروع المعرفية التي تجاوزت الجملة إلى ما فوق الجملة.

الكلمات المفاتيح: اللسانيات- الكلام – النص- الخطاب- تحليل الخطاب.

1- الموقف السوسيري من اللسانيات:

يقول فردينا ند دي سوسير(F.de Saussure 1857-1913 م): "ستكف اللسانيات على أن تكون تابعة للمعارف البشرية الموازية لها، لتصبح تدريجيا متبوعة بها حاملة للريادة المنهجية والأصولية"[1]. يحمل هذا القول دلالات استقلالية اللسانيات كعلم يدرس اللغة الإنسانية دراسة علمية، تقوم على الوصف ومعاينة الوقائع بعيدا عن النزعة التعليمية والأحكام المعيارية، من أجل بيان حقيقتها وعناصرها ونشأتها وتطورها من جهة، وبيان العلاقات التي تربطها بغيرها، وكشف القوانين الخاضعة لها في مختلف نواحيها من جهة ثانية[2]؛ والعلمية-هنا- لا تتحقق إلا إذا اعتمدت على ملاحظة الأحداث، وامتنعت عن اقتراح اختيار ما ضمن تلك الأحداث باسم بعض المبادئ الجمالية أو الأخلاقية في موضوعها.

---

[1]- سوسير، دروس في الألسنية العامة، ترجمة: صالح القرمادي وآخرون، الدار العربية للكتاب، طرابلس، تونس، 1985، ص120.

[2]-André martinet, élément de linguistique générale, Armande colin, Paris, p06.

وينظر: أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، دار الفكر، سوريا، ط1، 1999، ص 11.

كما يحمل القول، دلالات إمكانية تطور هذا العلم، وتفرعه إلى غيره، مع محافظته على مكانة الريادة المنهجية؛ مما أدى إلى ظهور مدارس ونظريات ورؤى جديدة وبالتالي علوم جديدة ولدت من رحمها، وخرجت من تحت عباءتها، حيث انتقلت اللسانيات من دراسة الكلمة كمنجز بالإمكان، إلى دراسة العبارة كمنجز بالفعل، ومن دائرة التركيب في النحو، إلى دائرة التركيب في بناء النص، وكان ذلك أبرز انشغالاتها العلمية وتطلعاتها المستقبلية. ومنه التساؤل، كيف يمكن أن نعتبر اللسانيات السوسيرية أفقا لسانيا معاصرا يحوي لسانيات الملفوظ (الملفوظية) والأسلوبية ولسانيات النص ولسانيات الخطاب؟

وللإجابة على هذا السؤال، نشير إلى الثنائيات العديدة، التي أمدنا بها دي سوسير والتي دخلت في صراع من أجل تحديد مفهوم اللغة؛ فاعتبرت معطى لغويا اجتماعيا قائما، يحتاج إلى أشكال فردية تحرك ثبوته، ونماذج تمثله باعتباره تعاقدا بين الأصوات والأفكار، بين اللغة والكلام.

ومن هذا المنطلق، يفضل دي سوسير اللغة على الكلام لتفضيله الاجتماعي على الفردي، والجوهري على الثانوي، والعام على الخاص والمستقل بالكينونة على المرتبط بغيره، والثابت على المتغير.. الخ، وهو ما يعبر عنه ذلك التمييز بين لسانيات اللغة ولسانيات الكلام؛ إذ يقول: " حالما نروم تأسيس نظرية للكلام، يجب أن نختار بين سبيلين يستحيل أن نسلكها معا في وقت واحد، بل ينبغي أن نسلك كل منهما على حده وقد يمكن مع شيء من التبسيط أن نطلق اسم اللسانيات على كل من هاتين المادتين وأن نستعمل عبارة لسانيات اللفظ /الكلام (linguistique de parole)، كما استعملنا عبارة لسانيات اللغة (linguistique de langue)، ولكن يجب أن لا نخلط بين العبارة الأولى وبين اللسانيات بمعناها العام، ونعني بها تلك التي موضوعها الوحيد هو اللغة، والتي سوف يكون عليها-أي اللغة- مدار الحديث وحدها"[3]؛ باعتبار أنها ظاهرة إنسانية ، مرتسمة في كل دماغ على شكل معجم، ومتموضعة خارج إرادة أفرادها؛ فأما الأولى "لسانيات اللغة" فهي لسانيات عامة افتراضية موضوعها اللغة. في حين أن الثانية، أي "لسانيات الكلام" هي "لسانيات الاستعمال"، دون أن يوليها عظيم اهتمام؛ لانشغاله "بلسانيات اللغة"، التي تقترب بشكل أو

[3] - Ferdinand de Saussure, cours de linguistique générale, édition talantikit, Bejaia, 2002, p25.

بآخر من لسانيات النص، ليستحق هذا الأخير التمثيل الشرعي للغة. ويدفعنا هذا إلى القول أن دي سوسير من الأوائل الذين انتبهوا إلى لسانيات تفوق الجملة.

يحاول دي سوسير بكل وعي وإدراك– عبر هذه المقولة- الفصل بين أمرين مختلفين: لسانيات اللغة ولسانيات الكلام، على الرغم من التداخل الحاصل بينهما، فالكلام ضروري لكي تكون اللغة ظاهرة إنسانية بكل أبعادها المختلفة والمتداخلة؛ باعتبارها الأساس في عملية التعبير والتواصل وتسجيل الخبرات الإنسانية المختلفة. ومنه كانت هذه الثنائية (لغة /كلام) من أهم الثنائيات السوسيرية وأكثرها تميزا؛ لإسهاماتها في بروز علوم جديدة ناشئة، فلقد خلق دي سوسير بمصطلح "لسانيات الكلام" جدلا تواصل إلى الآن في قلب اللسانيات، إنه جدل يخلد أصالة وتأمل الفكر السوسيري في الواقع الحديث والمعاصر، ويبرز قيمته لكل مولود لساني جديد يريد التأسيس والتأصيل.

ولما كانت اللغة، من حيث هي قواعد نحوية وقوانين اجتماعية، تأتي على شكل نظام داخلي، ذي قواعد تواضعية ذهنية، يجسدها الكلام تجسيدا خاصا ضمن التواضعات التواصلية لقوم ما، تمكن المجتمع من ممارسة ملكة لسانية، موجودة بالقوة وبالفعل، تخضع لقدرة تنظيمية تواضعية، وهي "موضوع اللسانيات الأجدر بالدراسة[4] كونها غاية في ذاتها قابلة للتصنيف والتحليل، وهي نظام* يضبط قواعد الكلام ويتفحص أبنيته، وهو الأمر الذي قامت بتطويره لسانيات النص بطريقة خاصة، لإثبات التحكم الذاتي والوحدة والانسجام؛ وعلى اعتبار أن" اللغة (Langue) فكر منتظم في صلب المادة الصوتية"[5]، وعلى قول إدوارد سابير(E. Sapir):"اللغة بنية ومكوناتها الدلالية حجارة تلك البنية"[6].

---

[4]-Ibid; p29.

*على هذه الرؤى، تتشكل اللغة عنده من دوال ومدلولات، بارتباطهما يشكلان العلامة اللغوية، التي تتصف بالاعتباطية؛ لأنه لا وجود لعلاقة منطقية بين الدال والمدلول، وتخضع هذه العلامة اللسانية في ارتباطها بالعلامات الأخرى لثنائية من العلاقات يتوزعها محوران: الأول، هو الاستبدال، الذي يتيح للمتكلم إمكانية اختياره لعلامات لغوية من رصيده اللغوي دون الأخرى؛ بحيث يسمح له ذلك الرصيد باستبدال أي لفظ متى شاء، كما يحتم عليه الاختيار عزل الألفاظ التي لم يخترها؛ فهي علاقات تخضع لقوانين النحو ونظم اللغة التي ينتمي إليها الكلام وفق مبدأ الخطية، الذي سيشتغل عليهما هاريس في ما بعد. ينظر:كاترين فوك&بيارلي كوفيك، مبادئ في قضايا اللسانيات المعاصرة، تعريب: منصف عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984، ص 20.

[5]- سوسير،المرجع نفسه، ص172.

[6]-إدوارد سابير، اللغة(مقدمة في دراسة الكلام)، ترجمة: المنصف عاشور، الدار العربية للكتاب، تونس،1995م، ج1، ص39.

ونتساءل أمام قول "المادة الصوتية"؛ ما طبيعة هذه المادة التي تتخذها اللغة شكلا؟ ما ماهية المادة الصوتية التي تجسد أفكارنا المنتظمة لتجعلها سنفونية رائعة، حقيقتها مستقلة؛ لأن الأخطاء التي ترتكب لا تنال البتة من حقيقتها تلك، بأسسها وقواعدها وقوتها في الحضور والبقاء والاستمرارية؟ هل النموذج، الذي يمثلها: الجملة أم الملفوظ أم الخطاب أم النص..الخ؟ إنه التساؤل عن المظهر أو النموذج اللغوي، الذي يمثل اللغة وخاصة عندما يمنح هذه الوقائع بعض المبادئ والمزايا الشعرية (البنيوية الجمالية) مع ما تملك من ذهنية مفهومية.

والكلام-في نظر سوسير- تجسيد لها، من حيث هو إنجاز فردي لقواعد اللغة، بل إنجاز فعلي ملموس، يقوم بتجسيد آلي فعلي لنظام لغوي اجتماعي، تجسيدا فرديا ليحوله من الموجود بالقوة إلى الموجود بالفعل، إنه منظومة خارجية وداخلية، ووسيلة مرتبطة بإرادة الفرد المتكلم، ودراسته تساعد على اكتشاف اللغة، يخضع لحركتين متمازجتين؛ حركة الصوت الفيزيولوجي، والحركة النفسية الذهنية للمتكلم، للتعبير عن فكره الشخصي[7]، ومن هذا التزاوج تتولد السلسلة الكلامية موضوع لسانيات الكلام، التي أشار إليها دي سوسير فكانت-هذه النقطة- اللبنة الأساس لهذا الاتجاه الجديد الذي اهتم بهذه السلسلة المسماة "نصا"، موضوعا قائما بذاته في معظم الدراسات اللسانية المعاصرة.

يقول سوسير:" وإذا أخذنا الكلام جملة بدا لنا متعدد الأشكال، متباين المقومات موزعا في الآن نفسه بين ميادين متعددة بما فيها الفيزيائي والفيزيولوجي والنفسي منتميا في الآن نفسه إلى ما هو فردي وإلى ما هو اجتماعي"[8]، يقوم على مبدأ: الإرادة والذكاء إنتاج تواصلي يحمل سمة فردية مميزة بكل أبعادها: النفسية، الاجتماعية الدينية، السياسية، الفكرية..الخ.

وهي رؤية ستساهم في إرساء مبادئ وقواعد علم يمارس على أهم النماذج والأشكال اللغوية، وهو النص، الذي تتأسس عليه اللسانياتبعلميتها، حيث تسعى من خلاله، إلى تحديد الأبعاد الابستيمولوجية له، في كليته وشموليته، من جهة، وإلى إدراك أبسط العمليات النفسية التي فعلت نشاطه كمخبر كيماوي، من جهة ثانية. والذي ينعم النظر سيجد أن النص

[7]-Voir; Saussure, cours linguistique, p21, 22 et p 27.

[8]- Saussure, cours linguistique, p29.Et voir; Calisson et Coste dictionnaire de didactique des languesdictionnaire de didactique des langues Librairie hachette, France, paris, 1976, P.395.396.

هو مدار الدراسة اللسانية؛ فالباحث منه ينطلق وإليه يعود، لذلك صرح أحد اللسانيين قائلا: "إن اللسانيات تتعهد بدراسة العلامة اللغوية لا من حيث هي غرض في ذاته، ولا من حيث هي جزء بمفرده، ولكن من حيث هي عنصر مكون لنظام دائري؛ إذ تهتم اللسانيات بتوليد الحدث وبلوغه وظيفته، ثم بتحقيق مردوده عندما يولد رد الفعل المنشود، وهكذا يكون موضوع علم اللسان، اللغة في مظهرها الأدائي ومظهرها الإبلاغي وأخيرا في مظهرها التواصلي"[9].

لقد كانت اللسانيات السوسيرية اجتهادا نظريا، راح يبحث عن مشاريع تطبيقية؛ فكانت لسانيات النص-في نظرنا- على رأسها، كون الوظيفة المميزة للكلام بالمقابلة مع التفكير ليست خلق وسيلة صوتية مادية للتعبير عن الأفكار، وإنما هي أن تستعمل كواسطة بين الفكر والصوت، في ظروف معينة تسمح بترابطها الذي يؤدي ضرورة إلى تحديدات متبادلة للوحدات، ما يمنح الكلام التميز والقدرة على التعبير فتجعله متمتعا بالحرية في توليف وترتيب وتنسيق وربط العناصر اللغوية والكلمات.

نخلص إلى، أن الفضل يعود إلي سوسير في منع التطابق غير المشروط بين المبادئ العاملة على مستوى اللغة الافتراضي، والمبادئ العاملة على مستوى الاستعمال الفردي لها وهو الكلام، الذي أدى إلى ظهور الأسلوبيةولسانيات النص ولسانيات الخطاب؛ ليتأكد بذلك أن كتاب دي سوسير هو "بوابة العلوم اللغوية الحديثة"؛ لأنه كتاب متداخل الاختصاصات، طرحت فيه العديد من الأفكار والمباحث التي تعرضت للنقد والتمحيص والمراجعة، دون التقليل من شأنها، بل كانت توليدا وتمطيطا وتعظيما لأفكار امتدت فيها إلى غيرها، فمهدت لظهور علوم لغوية، ونظريات حديثة، عادت بحبل وريدي للسانيات الأم، ولا يختلف الدارسون على ذلك؛ لا لكونها جعلت من اللغة موضوعا للبحث، ولكن لحملها بذور منهج يسعى إلى التنقيب عن قوانين داخلية حكمت هذه الظاهرة الإنسانية؛ وهي قضايا أسست في النهاية، برؤى توسعية تطورية جديدة، ممنهجة ودقيقة، لدراسات وأبحاث لسانية معاصرة: نصية وأسلوبية وخطابية.

---

[9]- عبد السلام المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، الدار التونسية للنشر، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص81.وينظر: صلاح فضل، علم النص وبلاغة الخطاب،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 164، صفر 1413هـ/ آب 1992م، ص 136، 137.

ثانيا. صدى لسانيات الكلام السوسيرية في الدراسات اللاحقة (هيلمسلاف):

على الرغم من أن أفكار دي سوسير هي اللبنة الأساس لأفكار لويس هيلمسلاف (Louis Hjelmslev) 1899- 1965م، إلا أن هذا الأخير قد اختلف عنه في جملة من الآراء منها مثلا أن ما "كان يسمى نظاما، وما كان يسمى كلاما يطلق عليه عملية ويكمن النظام تحت سطح العمليات اللغوية، كتيار مستمر تمر فوقه الذبذبات المختلفة ويعتبر النص هو العملية"[10]، أما الشيء الذي لا خلاف فيه، فهو ضرورة أن تكون النظرية اللغوية صالحة لوصف وتوقع أي نص ممكن في أية لغة، بحيث تكون قابلة للتطبيق على لغة فعلية أو محتملة،كما أنه يرفض الفكرة التقليدية القائلة بأن الوقائع الإنسانية تختلف عن الوقائع الطبيعية، من حيث عدم وجود إمكانية في دراستها بمناهج دقيقة، ولا إخضاعها لتعميمات مطلقة؛ "لأنها وقائع منفردة وفردية، ويرى أنه لابد من البحث عن تيارات وصفية عامة، لأنه إذا كانت كل عملية تنطبق على نظام ما، فإنها ستبدو عند التحليل، كما لو كانت مجموعة متناهية من العناصر التي تعود للبروز بصفة دائمة في توفيقات جديدة، وتتيح الفرصة في نهاية الأمر لتقدير دقيق مستمر مستقصى لجميع هذه الإمكانات"[11].

ويعتبر هيلمسليف(L. Hjelmslev) أحد الأقطاب المؤسسة لهذه الفرضية عندما تنبأ بالمكانة التي سيتخذها النص (Texte) -يوما ما- في الدرس اللساني؛ ليلعب دورا بارزا في إرساء قواعد فكرة التوسع بتجاوز القيود الجملية إلى ما فوق الجملية، مدركا حقيقة مصطلح (Texte)؛ ليقوم بطرحه في شكل مفصل، يفوق طرح دي سوسير، وقد شهد على ذلك كل من قرأ وفهم جيدا هيلمسليف- وأدرك مكانته في الدرس اللساني المعاصر. تقول عنه ميلكاإفيتش(MilkaIvic): "إن بحثه الدائب عن مذاهب جديدة للبحث اللساني يثير الإعجاب..؛ فقد كان دائما تواقا للبحث عن أشكال جديدة من العمل البحثي"[12]؛ ولعل من بين هذه الأشكال الجديدة، أو الفتوحات اللسانية المعاصرة : "لسانيات النص"، كونها الفرع الذي سيتكئ على النص(Texte)، وينطلق ليدخل دهاليز فكرية، تنيرها شموع البحث

---

[10]- صلاح فضل، النظرية البنائيةفي النقد الأدبي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط2، ص93.

[11] -المرجع نفسه، ص94

[12]- ميلكاإفيتش، اتجاهات البحث اللساني، ترجمة: سعد عبد العزيز مصلوح وفاء كامل فايد، المجلس الأعلى للثقافة (المشروع القومي للترجمة)، ط2، 2000، ص323.

والعلم، التي أنارت مؤلفاته العلمية، فأحال فيها مرات عديدة لمصطلح "texte" جاعلا منه عنصرا مؤسسا في النظرية المنظوماتية اللغوية الجديدة، باعتباره عنصرا لغويا تواصليا، ذا مكانة رائدة ؛ "إنه كيان لغوي قابل للتحليل من أجل استفراغ إمكانياته ومكوناته الدنيا"[13].

وعليه جاء النص في ظل هذه النظرية معطى ضمنيا منذ بداية التحليل، بل وفي كل مراحله، الأمر الذي سيجعل منه في آن واحد منطلقا وغاية؛ منطلق عملية الوصف والتحليل، وهو كذلك منتهى غاية هذه العملية؛ لأن الهدف والغاية من تأسيس النظرية اللغوية –عنده- وصف جميع النصوص في لغة ما، ودراسة بنائها[14]، أي أن النظرية الغلوسماتيكية تنطلق من كون النص بنية شمولية عامة، لا متناقضة والوصف في هذه الحالة يرتكز على العناصر التي ترتبط مع بعضها والتي يجب على علم اللغة وصفها وهذا ما يقابل مقولة دي سوسير" في ذاتها ولأجل ذاتها"؛ ذلك أن الأمور التي تهم نظرية اللغة –عنده- هي النصوص لأنها المجال الذي تحقق فيه اللغة، إنها المعبر الضروري الذي لا مناص منه؛ لبلوغ النظام الصوتي والنظام النحوي والنظام الدلالي[15] ليؤكد هيلمسليف في النهاية وبشكل صريح أن الأمر الذي يهم نظرية اللغة هو النص.

ويعلق زتسيسلافواورزيناك (ZdzislowWawrzyniek) على هذا الرأي قائلا:".. ولكن بالنسبة إلى هيلمسليف، النص من جهة التعريف غير محدد، ولذلك فهو يساوي النص بكل المنطوقات الحقيقية والمحتملة للغة الدانمركية- وهكذا ففي التوضيح- النصوص ليست وحدات لغوية وليست نصوصا مفردة، بل مجموعها الحقيقي المحتمل، أي أنها نوع من الكلام والأداء"[16].

يقول هيلمسليف في تصنيف نظريته، في إطار الأفكار التي قام بطرحها، خاصة بعد 1943، أي في بدء الاهتمام بالنص، و برز بشكل واضح في كل مؤلفاته العلمية:" إنها

---

[13] -Hjelmslev. L. Prolégomènes à une théorie du language, édition minuit, Paris, 1968, P21.

[14]- Hjelmslev, prolégomènes, P27.28.

وينظر: ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب منشورات مخبر تحليل الخطاب، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، دار الأمل للطباعة والنشر، الجزائر، ط1، 2005، ص 58.

[15]- Hjelmslev, Prolégomènes, P17.

[16]-زتسيسلافواورزيناك، مدخل إلى علم النص- مشكلات بناء النص-، ترجمة سعيد حسن بحيرى، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2003، ص 53.

(غلوسماتيك أو نظرية اللغة)، تهدف إلى إرساء منهج إجرائي يمكن من فهم كل النصوص من خلال الوصف المنسجم والشامل. إنها ليست نظرية بالمعنى العادي لنظام من الفرضيات، بل نظام من المقدمات المنطقية الشكلية والتعريفات والنظريات المحكمة، التي يمكن من إحصاء كل إمكانات التأليف بين عناصر النص الثابتة"[17]؛ إذ تسعى هذه المنظوماتية– في جوهرها- إلى وضع نظرية لسانية تخضع عناصرها لمعيار الإحكام والاتساق التام، بشكل يجعل نتائجها- في نهاية الأمر- منطقية تابعة لمقدماتها، لا تناقض فيها، ذات وصف شامل ومحكم وبسيط.

إن هذه النظرية، عبارة عن نظام تحليلي منطقي مستقل عن الظواهر غير اللغوية ومتحرر عن كل المعطيات الفيزيائية والفيزيولوجية والنفسية والاجتماعية، وعند تطبيق هذا النظام على كتلة مادية كالخطاب البشري، يفرز لنا أسلوبا محددا ونصا معينا، ويرجع فضل وجود هذا النص إلى الإجراءات العملية التي ولدته وفق قوانينها، لا إلى كونه ذا وجود سابق كخطاب غير متميز، وهذا النص ماهو إلا جملة من الاستنتاجات المنفصلة عن المحتوى والمجسدة في قضايا خاضعة لمتطلبات المنطق الشكلي؛ إذ تقتضي نظرية هيلمسلاف، في محاولتها بناء منطق رياضي للغة في مزجها بين علم اللغة والمنطق الرياضي إلى أن تتخذ بنيويته شكلا ثابتا لا متغيرا، يولي أهمية كبرى للعلاقات الثابتة أكثر من التحولات التي تصيب اللغة في تغيرها؛ لتصبح اللغة مجرد ذهنية شكلية. يقول هيلمسليف:" إن العلاقة بين التعبير والمحتوى، أو الدال والمدلول تتجسد إذا فكرنا دون تعبير، فإن تفكيرنا في هذه الحالة لن يكون محتوى لسانيا، وإذا تكلمنا بدون تفكير بإنتاج أصوات لا معنى لها، فلن نحصل على تعبير لساني"[18]، فكانت منظومته إضافة نوعية للدراسات المعاصرة.

إن اللغة لا يمكن – في نظره- فصلها عن الإنسان، فهي الأداة التي بفضلها يمكن صياغة مشاعره وانفعالاته وجهوده وإرادته وحالاته، بها يمكن أن يؤثر ويتأثر[19] وتتركز اهتمامات اللسانيات عنده حول مسألة البنية، لهذا يتجاوز المستوى الفونولوجي ليهتم بمشكلات التعبير

[17]- أحمد مؤمن، اللسانيات النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 2005، ص 159. 160

[18]-Hjelmslev. L . Prolégomènes à la théorie du Language, p 72.73

[19]-Hjelmslev, Prolégomènes .., p9

ووحدات المحتوى، فاللغة هي الشكل والمادة وهي: تعبير(Expression) ومحتوى (Contentent)؛ فمادة المحتوى (الأفكار) هي الواقع الحي في ذاته وشكل المحتوى (البنية الصوتية التركيبية المعجمية) ويعني بها التصور النفسي لمادة المحتوى، أي كيف نستقبل الواقع الحي من حولنا.أما مادة التعبير، فهي الجانب الصوتي الفيزيائي من اللغة (الفونولوجي)، وشكل التعبير (la forme d’expression) هو التصور النفسي لمادة التعبير،أي بمعنى معاصر:كيف نستقبل ونتصور علامة اللغة في عملية التواصل.ويستعمل هيلمسلاف منجزات (رولان بارث) في قراءته الجديدة للبلاغة؛ في بيان حقيقة اللغة، التي تعرف، مفهوما، محققة لمخطط العبارة أو الملفوظ نفسه، والشكل عبارة ومضمون[20]:

langage اللغـــة = عبـــــــارة Expression / مضمـــــون contenu

connotatif الإيحائية = مضمون/ محتوي Contenu

ومن ثمّ، كيف يتفاعلان لإعطاء القيمة اللغوية للملفوظ أو المنجز اللغوي، ولا شك في أن هذا التمييز نابع من إيمانه بمبدأ سوسير القائل بالتنظيم الصوري للنظام اللساني وذلك لإمكانية استخراج هذا التنظيم اللساني من المادة التي ينتظمها، وبالتالي فإن البنية- في نظره- قابلة للانفصال عما تبينه"[21]؛ لأن هيلمسليف في ظل تفرقته المنهجية بين المحتوى

[20] - Oswald, Ducrot, Dire et ne pas dir. (principes de sémantique linguistique), Hermann éditeurs des sciences et des ARTS.P 16.

[21] - الطيب دبة، مبادئ اللسانيات البنيوية(دراسة تحليلية استمولوجية) جمعية الأدب لأساتذة الباحثين، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2001، ص118 وينظر، ملكا إفيتش، اتجاهات البحث اللساني، ص 327.

وينظر: L .Hjelmslev, Essais linguistiques, p45.

والتعبير، يحاول أن يكشف عن بنية المعنى* باعتماد مبدأ التقطيع المزدوج الذي كان قبله يطبق في مجال التعبير (الشكل) فحسب[22].

و"يشكل هذا التمييز المزدوج النواة التي تنجذب بقوة حولها -بأبعاد متعدد- جميع المناقشات المنجزة، والتي ستجري حول أي منهج أو أي مبدأ..، ومن ثمة فإن أي منهج لساني واضح أو غير واضح، يمكنه بل ويجب عليه أن يتحدد وفق علاقته بهذين التمييزيين الرئيسين (ويقصد التعبير والمحتوى)"[23]؛ لترتسم بذلك معالم فرضية التوسع في لسانيات هيلمسليف؛ باعتبارها نظاما تحليليا منطقيا للظواهر اللغوية، ومتحررا عن كل المعطيات الفيزيائية في سبيل الوصول إلى نتائج منطقية تابعة لمقدماتها، لا تناقض فيها، ذات وصف شامل وبسيط ومحكم، وعناصرها خاضعة لمبدأ الإحكام والاتساق التام نحو لسانيات نصية حديثة تقوم على مستوى النص، في سبيل الوقوف على علاقات الترابط الحاصلة في المستويين(الشكل والدلالة) للبناء النصي.

ومن هذا المنطلق، يصادف هيلمسلاف أثناء تلقيه الصراع الحاصل بين الثنائيات في الفكر السوسيري، مشكلة أثارت انتباهه تتمثل في محاولة التعرف إلى نوع الوظيفة الموجودة في ثنائية دي سوسير (اللغة/الكلام)، فقرر –بذلك- إجراء تحليل يمس المفاهيم ويقود إلى كل طرف في الثنائية، مع السماح بدخول معان مختلفة إلى كل طرف، لأن الغموض الحاصل من جراء عدم معرفة الحدود التلقائية الدقيقة بين الطرفين، هو العامل المساهم في إحداث كل الصعوبات؛يقول هيلمسليف: "إن هذه الميزات [يقصد المعاني السابقة للغة والكلام] التي قمنا بتوضيحها يتمثل فضلها في كونها تبصرنا بالعلاقات الممكنة بين اللغة والكلام بالمفهوم السوسيري، ونحن نعتقد أنه في مقدورنا نسيان هذه العلاقات، التي لا يمكنها أن تحدد دفعة واحدة، وأن اللغة، واللغة المعيار واللغة الاستعمال، لا تعمل

---

*إن هيلمسليف لم يحلل –في البداية- سوى المعاني، وتسمى (Pilerémes) التي تحددها أشكال الكلمات بدقة، أي تلك الكلمات المؤلفة من "أساس" (الجذر + علامة)، أي النهاية التي تشير إلى صنف الكلمة ووظيفتها.

[22]J. Dubois et autres, dictionnaire de linguistique, p380.

و ينظر : الطيب دبة، مبادئ اللسانيات، ص123.

[23]Hjelmslev. L, Essais linguistiques,édition minuit, Paris,1971, p45.

بالطريقة ذاتها في مواجهة الفعل الفردي الذي هو الكلام"[24]؛ ويمكن القول إن إسهام هيلمسليف في ضبط هذه الثنائية نابع من التحليل الذي منحها دورا منهجيا في اللسانيات البنيوية، وكشف عن العلاقة الوظيفية بينهما، ويتمثل هذا الإسهام في تحديده لمفهوم اللغة؛ الموضوع الجوهري للسانيات، بثلاثة مفاهيم فرعية:

1. **المخطط (Schema):** والمراد به النظر إلى اللغة من حيث هي صورة خالصة مستقلة عن تحققها الاجتماعي ومظهرها الشكلي المادي.
2. **المعيار (Norm):** والمراد به تحديد اللغة من حيث هي شكل أو صورة مادية منظور إليها في ظل تحقق اجتماعي ما، ولكن بشكل مستقل عن تفاصيل مظهرها.
3. **الاستعمال(Usage):** ويريد به النظر إليها من حيث هي مجرد مجموعة من العادات المتبناة في مجتمع ما، والمحددة بالمظاهر الملاحظة، والتي يمكن تسميتها الفعل (act) والمراد به الاستعمال الفردي للغة؛ فـ"يرى هيامسلاف النص، كل انجاز فعلي لنظام، و أكثر تفردا لنظام نوعي، أي ما يجعل اللغة نصا، وهو يساوي الكلام عند سوسير"[25]؛ و يميز هيلمسليف بين هذه المصطلحات كالآتي:

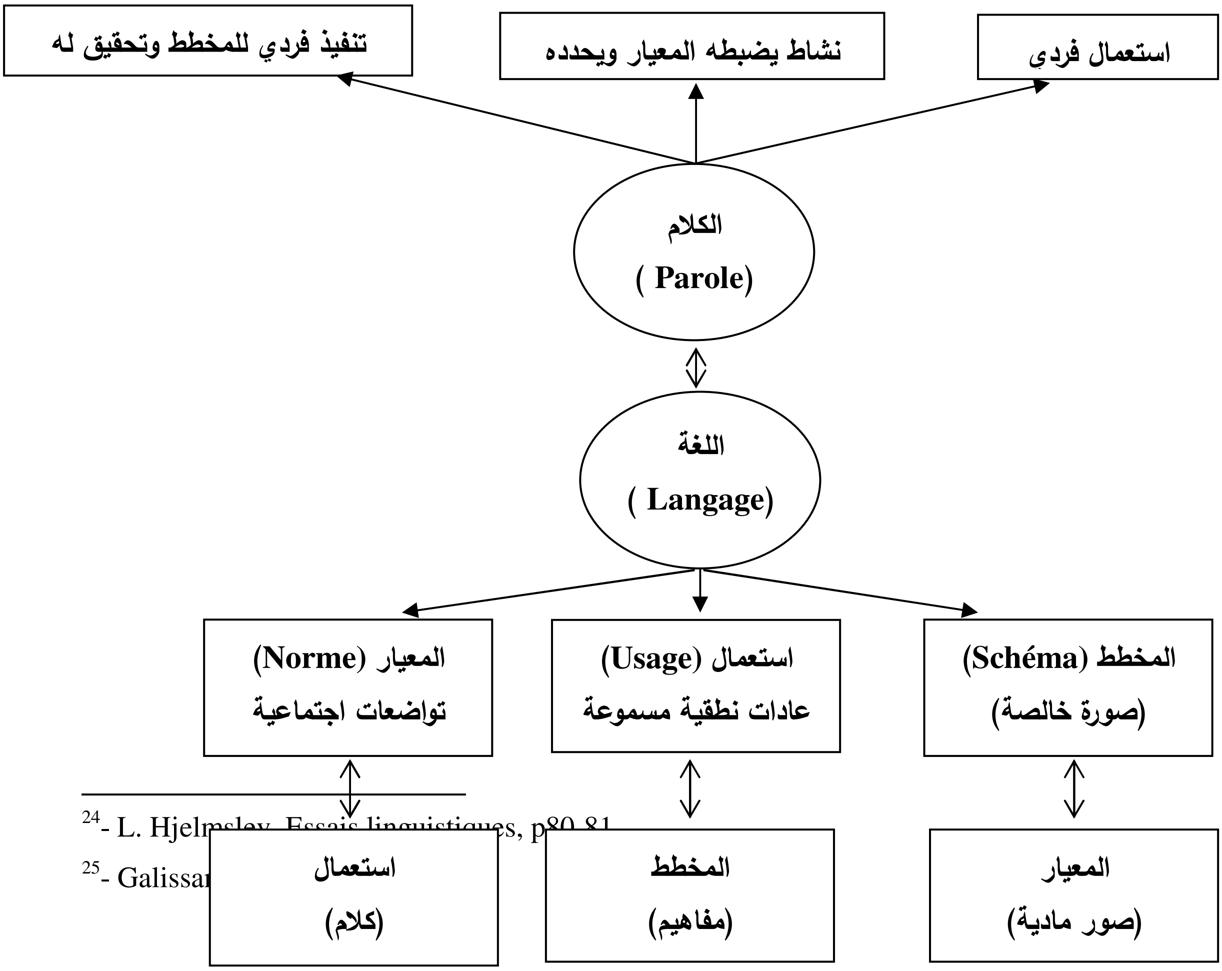

24- L. Hjelmslev, Essais linguistiques, p80-81.

25- Galissa

فالاستعمال أداته الكلام، والكلام مصدر وميدانه الاستعمال، وهذا كله يشتغل تحت مفهوم المعيار (اللغة)، وفي هذا الشأن ينبه هيلمسليف إلى التقابل الحاصل بين المعنى من جهة، والصوت الكلامي /الصورة الكتابية، أو النظام التشفيري أو النظام التركيبي من جهة أخرى؛ ليجعل من هذه الأخيرة وحدة، ذات وظيفة تواصلية؛ ليشكل نسيجا من الثنائيات، تحاكي ثنائية دي سوسير لغة (langue) كلام (parole) بشكل مساو، ألا وهي:لغة (langue) نص(Texte)/نظام (système)، إجراء (processus) /استبدال (paradigme) وتركيب(syntagme)؛ لأن العلامة- في هذا النسيج- ماهي إلا "الحدث الذي يمكن للفكر أن يتحول به إلى مدلول كما يمكن للصوت أن يصبح به تعبيرا دالا"[26]؛ هذا التوالد الثنائي للمصطلحات، جعل اللغة نظاما سميائيا تواصليا. ولعله الأمر الذي جعل ميلكاإفيتش تصرح قائلة:"إن لسانيات هيامسلاف ذات طابع مقاماتي(براجماتي) ظاهر؛ إذ أن الهدف منها هو أن تعين على وضع نظرية عامة للعلامات التواصلية؛ أي نظرية عامة للسميوطيقا"[27]، وهيمسلاف مدين في كل ذلك للفكر السوسيري المنتظم.

كون نظريةهيلمسليف لم تخرج عن حدود المعلن عنها في مؤلف سوسير؛ بإبراز علاقات التتابع والاستبدال في الجملة[28]؛ كون الفونيمات تتبع تتابعا ثابتا تحدده قواعد إجبارية، تؤخذ من المعجم أو من الإجراء الصرفي، بينما تخضع الكلمات لتتابع تتحكم فيه قواعد مختلفة إلى حد التباين أحيانا، الأمر الذي يبرز قيمة العلائقية للوحدة اللسانية،والتي يراها هيلمسلاف "سلبية بشكل خالص وعلائقية (dépendance) ، وأنها تتحدد بكونها لا تستمد قيمتها من ذاتها..بل من العلاقات التي تربطها بالوحدات الأخرى"[29]، فهذه العلاقات

---

[26]-Hjelmslev. L, Essais linguistiques, p125.

[27]-ميلكاإفيتش، اتجاهات البحث اللساني، ص 326.وينظر: خليل إبراهيم، نحو النص واللسانيات، ص27.

[28]- ينظر: منذر عياشي، العلاماتية وعلم النص، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2006، ص 120، 121.

[29]-Hjelmslev. L . Prolégomènes, p 61,62

المتبادلة للوحدات اللسانية ضمن سلسلة الخطاب، هي من أهم مقدمات هذه النظرية، من أجل الفكاك من أسر الجملة ودخول عالم النص/ عالم الملفوظ/ عالم النص، لتتأسس نظريات وأبحاث معاصرة من هذا المنطلق، أي لسانيات الكلام بالمصطلح السوسيري؛ دعا إليها إميل بنفينيستوكاليولي وغيرهما في لسانيات التلفظ، وشارل بالي وريفاتير وغيرهما في الأبحاث الأسلوبية، وهارتمانوبيتوفيودلايسلر وروبرت آلان دي بوغراند في لسانيات النص، وسورل وأوستين وغرايس وآن ريبولوأزوالديكرو وغيرهم في دراسات لسانيات الخطاب و التداولية، ولايزال البحث اللساني يعود إلى دي سوسير مؤصلا في كل باكورة علمية، يتم الانتباه إليها، ولئن القادم أعظم طالما العقل البشري يفكر ويدرك.

وينظر : ملكا إفيتش، اتجاهات البحث اللساني، ص 333.